منطق العلوم الاجتماعية

كارل بوبر

تقديم المترجم

ألقى كارل بوبر سنة 1960، عرضا في مؤتمر للسوسيولوجيين الألمان "بتوبنجن"، حول "منطق العلوم الاجتماعية" وهذا العرض، تضمن سبع وعشرين أطروحة، وصياغة مبرمجة لمهمة العلوم الاجتماعية . واعتبر أن طريقة صياغته لأطروحاته، تجعل من الصعب تقبلها من طرف هيجلي أوماركسي، كأدورنو . وقد حججا لصالحها، مركزا على ما اعتبره أساسيا، ومتجنبا ما أمكنه ذلك، تكرار ما قاله في كتاباته. وتبع عرضه جواب أدورنو، غير أن هذا الأخير، رفع تحدي أطروحات بوبر بصعوبة. وهذا ما خيب ظن بوبر، لأن النقاش لم يكن خصبا .

يعتبر بوبر، أن من ينسبونه إلى دائرة فيينا، وقعوا في سوء فهم، وذلك لأنهم لا يعرفون عمله إلا معرفة سطحية، وكذلك، الذين يحكمون على الكتب، من خلال الغلاف أو الناشر، وخاصة حين تعلق الأمر بنشر كتابه"منطق الإكتشاف العلمي"،الذي ينتقد فيه الدائـرة الوضعية، من وجهة نظر واقعية ومضادة للوضعية، عند اثنين، من زعماء هذه الدائرة· ويعيب على أدورنو وهابرماس، كونهما، لا يعرفان آراءه، ولا يهتمان بها، بقدر اهتمامه بآرائهما. إن كل هؤلاء وغيرهم، خلقوا هذا الوهم، بأن بوبر عضو في دائرة فيينا. هكذا ولد الوهم الذي انتشر في كل مكان، بأن بوبر وضعي.

كان هدف بوبر من أطروحاته، هو مهاجمة أدورنو، والمدرسة الجدلية لفرانكفورت. ويعترف بوبر، بأنه حتى سنة 1960، لم يكن واعيا بالتأثير السياسي اللاعقلاني لهذه المدرسة. ولهذا بقي في نفسه شيء من حتى، لأنه لم يهاجم خصومه باستعمال الحجج، التي ضمنها في كتبه، "المجتمع المفتوح وأعداؤه". و"عقم التاريخانية"، ومقال، "ما هو الجدل". ناضل بوبر ضد الوضعية، وضد تطبيقه منهج الاستقراء، من أجل الحق في العمل بحرية، انطلاقا من نظريات تأملية، وضد ضيق النظريات العلموية للمعرفة، وبصفة خاصة، ضد كل أشكال الاختبارية الحسية، كما ناضل ضد محاكاة العلوم الاجتماعية لعلوم الطبيعة، وبين أن الاسبتمولوجيا الوضعية لم توفق في تحليلها لعلوم الطبيعة، التي ليست تعميمات، انطلاقا من ملاحظات كما يعتقد عادة. ولكنها، بالأساس تأملية وجريئة، إن كل الملاحظات مشبعة بالنظرية وأن وظيفتها هي فحص وتنفيد نظرياتنا وليس إثباتها. وهذا ما يؤكد بوضوح الإخفاق الكلي لنظرية العقل –الدلو، وكل النظريات الأخرى، التي تسعى إلى إعادة بناء

المعرفة انطلاقا من ملاحظاتنا أو تجاربنا أو المعلومات التي تلج في عضويتنا. إن المعرفة لا تبدأ من الملاحظة أو التجربة ولكنها تبدأ من سياق للشك، من الدهشة، من التوتر بين المعرفة وعدم المعرفة، من مشاكل نظرية أو عملية تواجه صعوبات. فنضع فروضا أو نظريات، ونقوم باختبارها، وتنبثق مشاكل جديدة، وهكذا...إنه بحث دائم. وهذا ما يسميه بوبر "وحدة المنهج"، يعني الأطروحة التي بموجبها، أن كل كل العلوم النظرية أو المعممة، تستعمل نفس المنهج، سواء تعلق الأمر بعلوم الطبيعة أو العلوم الاجتماعية. ويقوم هذا المنهج على تحليل وضعية الذات الفاعلة انطلاقا من الوضعية دون اللجوء إلى البسيكولوجيا. فتحليل الوضعية يقصي العوامل البسيكولوجية، ويعوضها بعناصر موضوعية للوضعية. ما يسميه بوبر "منطق الوضعية"·ويعتبر تحليلات الوضعية عقلانية وقابلة للنقد اختباريا، وقابلة للتحسين ولا يقصي بوبر الفلسفة أو الميتافيزيقا، التي يجدها مليئة بالمعنى. ويشيد بالدور التاريخي الهام، الذي لعبته الميتافيزيقا في تكون النظريات العلمية إن بوبر يقدم نفسه فيلسوفا واقعيا، يحمل برنامج حلم ميتافيزيقي ولم يعرف خصومه، كما يقول، كيف ينتقدون عقلانيا أطروحاته السبعة والعشرين، وكل ما استطاعوا القيام به، هو أن يلصقوا به علامة "وضعي". وأكثر من ذلك، أصبحت المسألة الأساسية، هي اتهام أدورنو وهابرماس له، بالدفاع عن الوضع السياسي القائم، من خلال ميتو دولوجيته. وهو نفس الاتهام، الذي وجهه بوبر لهيجل في كتابه، "المجتمع المفتوح وأعداؤه."

تفضل نظرية بوبر الاجتماعية الإصلاحات التدريجية وجزءا بجزء، والتي تتم مراقبتها بواسطة مقارنة نقدية بين النتائج المنتظرة والنتائج المحصل عليها. وهي تتناقض مع نظريته في المنهج، التي يعتبرها نظرية للثورات العلمية والفكرية. ولهذا حدد بوبر موقفه بخصوص الثورات، تبين نظرية المعرفة عند بوبر، بأن علوم الطبيعة لا تنطلق من "المقاييس"، بل إنها تنطلق من أفكار. وأن تقدم العلوم، لا يرتكز على تراكم الوقائع وتفسيرها، ولكنه يرتكز علىأفكار جريئة وثورية، تخضع للنقد وتراقب بصرامة. ولهذا، فنظريته في المعرفة، هي نظرية نمو المعرفة وتقدمها، من خلال الثورات الفكرية والعلمية. وفي الميدان الاجتماعي، يلح بوبر على البعد التطبيقي، في الصراع ضد الآفاق الاجتماعية، وضد المعاناة، وضد قمع الحريات، بالتعارض مع الوعود التي تبشر بإقامة مملكة السماء على الأرض. ومن هذا المنظور، فهو ليبرالي غير ثوري. إن النقاش حول إصلاح المجتمع، لا يجب أن يكون حكرا على من يطالبون بالاعتراف بكونهم ثوريين عمليين. ونقطة انطلاق بوبر هي نظرية التطور الداروينية. تنهمك الكائنات ليل نهار في حل المشاكل. إنها تحمل انتظارات، نزوعات، البعض منها فقط يتحقق أو يتحين. فهي تتطور بالتحسس، وبالمحاولات الخاطئة التي يتم إقصاؤها، وبصفة عامة، بإقصاء العضوية الحاملة للخطإ، وما يشكل جزءاً من ابيستمولوجية بوبر هو أن الإنسان غير تماما كل هذا، نتيجة تطويره للغة وصفية حجاجية. فلا توجد إلا خطوة واحدة من لامبيا إلى ايشتاين. كلاهما يعمل بواسطة المحاولات والأخطاء. ولا يمكن للاميبا إلا أن تكره الأخطاء، لأنها تموت إذا ارتكبتها. وفي المقابل، يعرف اينشتاين، أننا لا

يمكننا أن نتعلم إلا من أخطائنا، ولا يدخر جهدا، ليقوم بمحاولات أخرى جديدة، من أجل اكتشافها وإقصائها. فما لم تتوصل لاميبا إلى فعله، هو تبني مقاربة ذاتية نقدية. وهذه أكبر الفضائل التي وضعها اختراع اللغة الإنسانية في متناولنا. إن سيرورة المعرفة، سيرورة تطورية والنظرية الداروينية غنية كنموذج، يسمح في نفس الوقت بإبراز مجموع عملية المعرفة، وإضافة إمكانات الانعتاق الحضاري.

أصبح الإنسان قادرا على نقد محاولاته ونظرياته الخاصة. فنظرياته، ليست مدمجة في عضويته، أو في نظامه الجيني، إنها تنشر في كتب ومجلات، وبالتالي، فهي تنتمي لما يسميه بوبر العالم[3]، وتمكن مناقشتها بطريقة نقدية، والبرهنة على أنها خاطئة، بدون قتل أي كاتب، ولا حرق أي كتاب، أي دون أن نحطم حاملها. والعلم وحده يحل محل إقصاء الخطإ في مجرى الصراع العنيف من أجل البقاء، بواسطة نقد عقلاني غير مهدد وغير عنيف، بفكر وحجاج غير ذاتيين. إننا نتوفر بهذه الطريقة على إمكانية جديدة تماما، تسمح لنا بإقصاء محاولاتنا وفرضياتنا ونظرياتنا بطريقة نقدية بواسطة النقد العقلاني المتبادل دون أن نقصي أنفسنا. وهذه هي غاية النقاش العقلاني النقدي. ويجب على حامل النظرية الدفاع عنها ضد النقد الخاطئ، كما يجب عليه أن يغيرها، إذا كانت خاطئة· وسيلغي تأسيس منهج النقاش النقدي العقلاني المتبادل، استعمال العنف. فالعقل النقدي، هو البديل الوحد للعنف، الذي تم اكتشافه لحد الساحة. ومن واجب كل مفكر، أن يعمل من أجل هذه الثورة. والهدف هو تعويض الوظيفة الإقصائية للعنف، بالوظيفة الإقصائية للنقد العقلاني المتبادل، ولن يحصل ذلك، إلا ببذل الجهد المستمر، والعمل الكثير في الكتابة والحديث بلغة بسيطة وواضحة ما أمكن. إنها ثورة دائمة.

انتقد بوبر لسنوات عديدة، ما يسمى "سوسيولوجيا المعرفة". ومن ضمن ا هاجمه بالأساس، رأي ما نهايم في الموضوعية، والذي بموجبه، أنه يوجد اختلاف جوهري بين الباحث في العلوم الاجتماعية، والباحثي في علوم الطبيعة، أي بين دراسة المجتمع ودراسة الطبيعة. فمن السهل على الباحث في علوم الطبيعة، أن يكون موضوعيا، في حين أن الموضوعية لا يمكن بلوغها في العلوم الاجتماية. يرى بوبر أن موضوعية علوم الطبيعة والعلوم الاجتماعية، لا تتأسس على العقلية المحايدة للعلماء، ولكن، فقط، على الطابع العمومي والتنافسي للمؤسسة العلمية، وإذن، على بعض المظاهر الاجتماعية لهذه الأخيرة. ولهذا، فما تتغاضى عنه سوسيولوجيا المعرفة، هو بالضبط، سوسيولوجيا المعرفة، أي الطابع الاجتماعي أو العمومي للعلم. وباختصار، تتأسس الموضوعية على النقد العقلاني المتبادل، وعلى المقاربة النقدية، وعلى التقليد النقدي. والنتيجة، أن الباحثين في ميدان علوم الطبيعة، لا يمتلكون روحا أكثر موضوعية من الباحثين في ميدان العلوم الاجتماعية. وإذا ما وجدت موضوعية أكثر في علوم الطبيعة، فلأنه، توجد تقاليد أفضل، ومعايير صارمة للوضوح والنقد العقلاني. إن

عددا من الباحثين في العلوم الاجتماعية بألمانيا، تكونوا كهيجليين، وهذا تقليد محطم للفكر النقدي. ويتفق بوبر مع ماركس، الذي يعتبر أن الجدل في شكله المضل، أصبح الموضة المقبولة.

إننا نتعلم قيمنا أو معظمها من بيئتنا. نقوم أحيانا بمحاكاة الآخرين، أو برد فعل ثوري ضد القيم المكتسبة· ونقوم أحيانا أخرى، بفحص نقدي لهذه القيم، وللبدائل الممكنة. ومهما يكن يلعب الوسط الاجتماعي والفكري والتقليد، الذي تربينا فيه دورا حاسما، في اختيارنا للمعايير والقيم الأخلاقية وغيرها. لكن، توجد حالة خاصة، ولها أهمية خاصة، وهي القيم الفكرية. يعتقدها هابرماس، أنه وحده من ينتقد عمليا المجتمع، يمكنه أن يقدم حججا نظرية صادقة بخصوصه، بما أن المعرفة الاجتماعية، لا يمكنها أن تنفصل عن المواقف الأساسية· ولهذا وجه اعتراضا أساسيا لبوبر، معتبرا أن طريقته في التنظير، تخرق مبدأ هوية النظرية والتطبيق. وبالفعل، يؤكد بوبر، أنه يجب على النظرية أن تساعد الفعل. وبعبارة أخرى، يجب على النظرية أن تساعدنا على تغيير أفعالنا، وهذا ما يجعلنا نقبل عن طيب خاطر، كل نظرية تدلنا على كيفية حل مشاكلنا، بغض النظر عن موقف من يقترحها من المجتمع. وهذا نداء، إلى تبني قيم الحقيقة والبحث عن الحقيقة والاقتراب من الحقيقة، بواسطة منهج المحاولة والإقصاء النقدي للأخطاء، والتعبير بوضوح وبساطة. فالخطأ ليس عيبا، بل إنه فضيلة، ولهذا يجب علينا الاعتراف بقابليتنا للخطإ، وإذن بجهلنا. وهذا تأكيد على جهلنا الخاص والأساسي الذي لا حدود له، هذا الجهل، الذي يدفعنا إلى التفكير مع بوبر، في هذه المفارقة، التي تتجلى في العلاقة بين معرفتنا المدهشة، التي تنمو باستمرا، ووعينا المتزايد باستمرار، بأننا في الحقيقة لا نعرف شيئا.

النص:

أود أن أبدأ هذا العرض حول منطق العلوم الاجتماعية، بأطروحتين، تؤشران إلى التعارض بين معرفتنا وعدم معرفتنا.

الأطروحة الأولى : إننا نعرف الكثير من الأشياء. لا نعرف فقط الكثير من التفاصيل، ذات الأهمية الفكرية المشكوك فيها، ولكننا نعرف أشياء ذات أهمية عملية كبيرة، والتي تقدم لنا كذلك؛ بصفة خاصة، فهما نظريا عميقا، وفكرا مدهشا عن العالم.

الأطروحة الثانية : إن جهلنا لا حدود له، وهو محطم لأوهامنا، بل إن هذا التقدم المذهل للعلوم الطبيعية، بالضبط، الذي تحيل إليه أطروحتي الأولى) هو الذي يفتح عيوننا باستمرار، على جهلنا الخاص. وبالتحديد، في ميدان العلوم الطبيعية ذاتها. من هنا، تتخذ الفكرة السقراطية عن عدم المعرفة،منعطفا آخر· ففي كل خطوة إلى الأمام، وفي كل مشكل نحله، لا نكتشف فقط مشاكل جديدة وغير محلولة؛ لكننا نكتشف كذلك، أننا حتى عندما تخيلنا أننا نطأ أرضا صلبة وآمنة، فإن كل شيء كان في الواقع، غير مستقر ومتململا.

ليست أطروحتاي في المعرفة وعدم المعرفة بالطبع، متناقضتين إلا ظاهريا. وينشأ تناقضهما الظاهري، بالأساس، من كون، أن كلمة "معرفة"، استعملت في الأطروحة الثانية، في معنى مختلف تقريبا، عن معنى الأطروحة الأولى، ومع ذلك، فهاتان الدلالتان هامتان كذلك، الواحدة مثل الأخرى . وهاتان الأطروحتان، تمتلكان أهمية متساوية، وهذا ما أريد التشديد عليه في أطروحتي الثالثة.

الأطروحة الثالثة: لكل نظرية للمعرفة دور ذو أهمية أساسية، بل والذي، ربما يشكل فيها محكا حاسما: أن نعطي أهمية، في نفس الوقت، لأطروحتينا الأوليتين، بتوضيح العلاقات بين معرفتنا المدهشة التي تنمو باستمرار، ووعينا المتزايد باستمرار، بأننا في الحقيقة، لا نعرف شيئا.

وإذا ما فكرنا في هذا الأمر لحظة، فسيكون من المسلم به تقريبا، أنه يجب على منطق المعرفة، أن يتخذ كنقطة ارتكاز، التوتر بين المعرفة وعدم المعرفة: إن نتيجة هامة لهذه الفكرة، تمت صياغتها في أطروحتي الرابعة. ولكن قبل عرضها، أريد أن أعتذر عن كثرة الأطروحات التي ستأتي فيما بعد. والعذر الذي ألتمسه، أنه اقترح علي، أن أقدم هذا العرض، على شكل أطروحات [من أجل إتاحة الفرصة للمشاركين في المؤتمر، ليقدموا أطروحاتهم النقدية المضادة بطريقة أكثر إفحاما]. وكان هذا الدافع مفيدا جدا بالنسبة لي، مع أن هذا الشكل، يمكنه أن يخلق، بدون شك، انطباعا بالدوغمائية. وها هي إذن، أطروحتي الرابعة.

الأطروحة الرابعة: بقدر ما أن العلم أو المعرفة، يمكنهما أن يبدآ من أي مكان، يمكن قول ما يلي: إن المعرفة لا تبدأ من إدراكات أو ملاحظات، من جمع معطيات أو ووقائع، بل إنها تبدأ من مشاكل. لا توجد معرفة بدون مشاكل – ولكن، كذلك، لا يوجد مشكل بدون معرفة. وهذا يعني أن المعرفة تبدأ من التوتر بين المعرفة وعدم المعرفة: لا يوجد مشكل بدون معرفة – لا يوجد مشكل بدون لا– معرفة، وذلك لأن كل مشكل ينبثق من اكتشاف خطا في معرفتنا المفترضة وأيضا بكلمات منطقية ينبثق من اكتشاف تناقض داخلي بين معرفتنا المفترضة والوقائع.أو التعبير عنه أيضا، بطريقة ربما أكثر دقة ، ينبثق من اكتشاف تناقض ظاهر، بين معرفتنا المفترضة والوقائع المفترضة .

وعلى النقيض من أطروحاتي الثلاثة الأولى، والتي تعطي، ربما بسبب طابعها المجرد، انطباعا بأن تكون بعيدة نوعا عن موضوعي، منطق العلوم الاجتماعية، سأقول عن أطروحتي الرابعة، بأنها قادتنا إلى صلب نقاشنا ذاته. وهذا ما يمكن صياغته كما يلي في أطروحتي الخامسة.

الأطروحة الخامسة: يمكن للعلوم الاجتماعية، مثلها مثل العلوم الأخرى، أن تكون ناجحة أو فاشلة: مهمة أو تافهة، خصبة أو عقيمة، طردا مع مكانة أو أهمية المشاكل المعالجة، وبالطبع أيضا طردا مع النزاهة وسداد الحكم والبساطة التي تم بها التطرق لهذه

المشاكل. إن كل هذا، ليس مع ذلك، منحصرا بالضرورة في مشاكل نظرية؛ لقد كانت مشاكل عملية، كمشكل الفقر والأمية والاضطهاد السياسي والتباس الحق، نقط انطلاق مهمة للبحث في العلوم الاجتماعية؛ غير أن هذه المشاكل العملية أدت إلى التفكير وإلى التنظير، ومن هنا، إلى مشاكل نظرية؛ ففي كل الحالات، وبدون استثناء، إنها طبيعة ونوعية المشكل -بالطبع مع جرأة وأصالة الحل المقترح- هي التي تحدد قيمة أو تفاهة صياغة علمية ما.

إن المشكل إذن، هو دائما نقطة الانطلاق. ولا تصبح الملاحظة ضربا من نقطة الانطلاق، إلا إذا كشفت مشكلا، أو بعبارات أخرى، إلا إذا فاجأتنا، إذا بينت لنا صعوبة في معرفتنا وفي انتظاراتنا أو في نظرياتنا. لا تقود الملاحظات إذن، إلى مشاكل، إلا إذا تناقضت مع أحر انتظاراتنا الواعية أو اللاواعية. وما يشكل في هذه الحالة نقطة انطلاق العمل العلمي، ليست الملاحظة الخالصة والبسيطة، بقدر ما هي الملاحظة في دلالتها النوعية — أي بالضبط، الملاحظة التي تخلق مشكلا.

من هنا، أنا الآن في مستوى صياغة أطروحتي الرئيسية، والتي تشكل الأطروحة السادسة؛ وهذا ما تشتمل عليه.

الأطروحة السادسة (أطروحة رئيسية)

أ- يكمن منهج العلوم الاجتماعية، مثل العلوم الفيزيائية والطبيعية في وضع محاولات حل مشاكلها، أي المشاكل التي تشكل نقطة انطلاقها، موضع اختبار.

يتم اقتراح الحلول وانتقادها. وعندما لا يكون حل ما، قابلا للنقد الموضوعي، فإنه يقصى، في نفس الوقت، باعتباره غير علمي، ولو كان ذلك، ربما مؤقتا.
ب- عندما تكون محاولة حل ما، قابلة لنقد موضوعي، فإننا نحاول تفنيدها، وذلك، لأن كل نقد، هو في جوهره محاولة للتفنيد.

ج- عندما تفند محاولة حل ما، بواسطة نقدنا، فإننا نقوم بمحاولة أخرى.

د- عندما تقاوم محاولة حل ما النقد، فإننا نقبلها مؤقتا، نقبلها، بصفة خاصة باعتبارها جديرة بأن تناقش وتنتقد فيما بعد.

هـ- إن منهج العلم إذن، هو منهج تراقب فيه محاولة (أو فكرة) حل مزعومة بواسطة النقد الأكثر قسوة. وهذا هو الاستعمال النقدي للمنهج، بواسطة المحاولات والاخطاء.

و- ما يسمى موضوعية العلم، يكمن في موضوعية المنهج النقدي. وهذا يعني، قبل كل شيء، أن أية نظرية لا تفلت من النقد، وأن الأدوات المنطقية للنقد- مقولة التناقض المنطقي- هي أدوات موضوعية.

يمكن ربما، تلخيص الفكرة الأساسية، التي تتضمنها أطروحتي الرئيسية كما يلي :
الأطروحة السابعة: إن التوتر بين المعرفة وعدم المعرفة، يؤدي إلى مشاكل وإلى محاولات للحل. غير أن هذا التوتر لا يتم تجاوزه أبدا، وذلك، لأنه يظهر أن معرفتنا، لا تكمن أبدا إلا في اقتراحات مؤقتة للحل، تخضع للاختبار. إنها تتضمن إذن، في ذاتها، مبدئيا إمكانية، أن تنكشف فيما بعد، على أنها كانت خطأ، وإذن جهلا. والشكل الوحيد لتبرير معرفتنا، ليس هو بدوره إلا مؤقتا: إنه يكمن في النقد . أو على الأصح، في كون أن محاولاتنا للحل، تظهر حتى الآن، أنها قاومت نقدنا الأكثر قسوة.

لا يوجد أي تبرير إيجابي، أي لا يوجد أي تبرير سيتجاوز هذه الوضعية. وبصفة خاصة. لا يمكن البرهنة على الطابع الإحتمالي لمحاولاتنا للحل (في معنى حساب الاحتمالات). يمكن ربما، تسمية وجهة النظر هذه بالعلموية (في معنى قريب من المعنى الذي يستعمله كانط).

ومن أجل تدقيق أكثر لمحتوى أطروحتي الرئيسية، وأهميتها بالنسبة للسوسيولوجيا يليق أن تتم معارضتها، ببعض الأطروحات الأخرى، الناتجة عن ميتودولوجيا منتشرة بشكل واسع، والتي تم التشبع بها أحيانا، بلا وعي تام.

تلك مثلا، هي حالة هذا المذهب الطبيعي، أو العلموية الميتودولوجية الخاطئة والمنقولة والتي تطلب من العلوم الاجتماعية، أن تتعلم، في النهاية، من علوم الطبيعة، ما هو المنهج العلمي.

وبالفعل، فهذا المذهب الطبيعي المنقول، يضع شروطا من نوع: ابدأ بملاحظات ومقاييس، وليكن مثلا، بأبحاث إحصائية، وانتقل بعد ذلك، بواسطة الاستقراء إلى التعميمات، وإلى صياغة النظريات. وبهذه الطريقة، ستقترب من نموذج الموضوعية العلمية، بقدر ما سيكون ذلك ممكنا، في ميدان العلوم الاجتماعية وبالمناسبة، يجب أن تكون واعيا جدا، من كون، أن الموضوعية، فضلا عن ذلك، صعبة المنال في العلوم الاجتماعية منها في العلوم الطبيعية (بقدر ما لا يمكن بلوغها أبدا). وذلك لأن الموضوعية، تعني غياب حكم القيمة، وأن الباحث في العلوم الاجتماعية، لا يمكنه أن يتحرر إلا في حالات نادرة جدا، من قيم الطبقة الاجتماعية، التي ينتمي إليها، ليصل إلى درجة ما من الحياد والموضوعية.

وفي رأيي، كل واحدة من القضايا، التي عزوتها لهذا المذهب الطبيعي المضلل خاطئة تماما، فهي تنبني على سوء فهم لمنهج علوم الطبيعة، وكذلك على أسطورة خالصة وبسيطة: أسطورة، ليست مع الأسف، إلا أكثر انتشارا أو أكثر خطرا، نظرا للطابع الاستقرائي لمنهج العلوم الطبيعية، والذي يضلل بخصوص طبيعة وخصائص موضوعيتها. أود للمتابعة، أن أستغل جزءا صغيرا من الوقت الثمين، الذي خصص لي، لنقد هذا المذهب الطبيعي المضلل[1].

ولو أنه من المحتمل، أن عددا كبيرا من السوسيولوجيين، يرفضون هذه أو تلك، من الأطروحات التي عزوتها لهذا المذهب الطبيعي المنقول، فإنه مع ذلك، احتل اليوم [2]، موقعا مهيمنا في ميدان العلوم الاجتماعية، وذلك على الأقل، في الدول الانجلو ساكسونية، ما عدا في الاقتصاد . إن أعراض هذا الانتصار، هي التي سأفحصها في أطروحتي الثامنة.

الأطروحة الثامنة: عندما كانت السوسيولوجيا، قبل الحرب العالمية الثانية، ما زالت تعتبر كعلم نظري كوني- شبيه، ربما بالفيزياء النظرية- بينما نظر إلى الانتربولوجيا الاجتماعية، كسوسيولوجيا، تطبق على مجتمعات من طراز خاص جدا، هي المجتمعات البدائية، انقلبت هذه العلاقة اليوم تماما، بطريقة مدهشة. إن الانتربولوجيا الاجتماعية، المسماة كذلك اتنولوجيا، أصبحت علما اجتماعيا كونيا . ويظهر أن السوسيولوجيا، تتكيف أكثر فأكثر مع نزوعها لتصبح جزءاً من الأنتربولوجيا الاجتماعية، أي، انتربولوجيا اجتماعية تطبق على شكل من المجتمع خاص جدا: انتربولوجيا المجتمعات الصناعية لأوربا الغربية، ولإعادة قول ذلك باختصار . انقلبت العلاقة تماما بين السوسيولوجيا والانتربولوجيا . انتقلت الانتربولوجيا، من وضعية علم اجتماع تطبيقي إلى وضعية علم أساسي. والانتربولوجي الذي كان فيما مضى، رجل ميدان متواضع، وقصير النظر إلى حد ما، أصبح منظرا اجتماعيا بنظرات واسعة وعميقة. أصبح عالما نفسيا اجتماعيا للأعماق . أما السوسيولوجي المنظر فيما مضى، فيستطيع أن يعتبر نفسه سعيدا، أن يعمل كرجل ميدان ومتخصص، مكلف بملاحظة ووصف طوطميات وطابوات أهالي العرق الأبيض لأوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية.

ومع ذلك، لا ينبغي أن نأخذ بجدية مبالغ فيها، هذا المنعطف في مستقبل السوسيولوجيين: قيل كل شيء، لأنه بكل بساطة: لا توجد معرفة علمية، ستكون شيئا في ذاته. هذه الفكرة تمت صياغتها في أطروحتي رقم تسعة.

الأطروحة التاسعة: ما يسمى معرفة علمية، ليس شيئا آخر إلا تكدسا للمشاكل ومحاولات للحل، والذي تم حصره وبناؤه بطريقة مصطنعة. وفي المقابل، فما هو موجود حقا، هي المشاكل والحلول والتقاليد العلمية.

وعلى الرغم، من هذه الأطروحة التاسعة، فالقلب التام للعلاقات بين السوسيولوجيا والانتربولوجيا مهم جدا، وذلك، ليس بسبب فروع المعرفة وتسمياتها، ولكن، لأنه علامة على انتصار لمنهج يدعي خطأ، أنه آت من العلوم الطبيعية. وأصل بهذا إذن، إلى أطروحتي التالية.

الأطروحة العاشرة: إن انتصار الانتربولوجيا، هو انتصار لمنهج يدعي أنه ينبني على الملاحظة. ويدعي أنه وصفي، ويدعي أنه أكثر موضوعية، وإذن، فهو مطابق ظاهريا لمنهج

العلوم الطبيعية. إنه انتصار على الطريقة البيرونية: وانتصار آخر من هذا النوع، ونحن ضائعون، أنثربولوجيين وسوسيولوجيين معا.

أسلم عن طيب خاطر، بأن أطروحتي العاشرة، تمت صياغتها بطريقة لاذعة جدا، وينبغي علي قبل كل شيء، أن أعترف بأن الانتربولوجيا الاجتماعية راكمت مجموعة من الاكتشافات المفيدة والمهمة، وأنها أحد العلوم الاجتماعية التي حققت نجاحا كبيرا. وأنا مستعد، لأسلم كذلك، بأنه من الممكن، بصراحة، أن يكون مغريا ومفيدا، بالنسبة لنا، معشر -الأوربيين، أن ننظر إلى أنفسنا بدورنا، عبر نظارات الانتربولوجي الاجتماعي. لكن، ولو أن هذه النظارات، ربما أنها أكثر تلوينا من أخريات، فإنها على العكس من ذلك، ليست أكثر موضوعية. إن الانتربولوجي، ليس هو هذا الملاحظ الآتي من المريخ، والذي يتخيل نفسه أحيانا، أنه كذلك، والذي يسعى أحيانا، ليتقلد فيه الدور الاجتماعي، ليس من دون أن يجد فيه لذة· ولا يوجد أي سبب كذلك، لافتراض أن ساكنا من المريخ، سيرانا "موضوعيا" أكثر مثلا، مما نرى أنفسنا.

وبالمناسبة، أود أن أروي حكاية، تمثل حالة متطرفة بدون شك، ولكنها ليست قطعا فريدة. يتعلق الأمر بحكاية حقيقية، مع أن هذا لا يمتلك أية أهمية في سياقنا. وإذا ظهرت لكم هذه الحكاية، أنها لا تصدق· فسأطلب منكم إذن، تلقيها كحكاية مخترعة، كمثال متخيل بحرية، لتوضيح نقطة مهمة، باستعمال مبالغة فظة :

شاركت منذ سنوات، في اجتماع للمناقشة لأربعة أيام. نظم بمبادرة عالم لاهوت، وقد شارك في هذا المؤتمر، فلاسفة وبيولوجيون وانثربيولوجيون وفيزيائيون، ممثل أو ممثلان، لكل فرع معرفي. ما شكل تقريبا، ثمانية مشاركين ككل. وكان الموضوع "العلم والنزعة الإنسانية". وبعد تجاوز بعض صعوبات البداية، وإحباط محاولة للتأثير فينا، من خلال "عمق أصيل" (كلمة لهيجل، الذي لم يرأن عمقا أصيلا، ليس شيئا آخر إلا إسفافا)، نجح النقاش، بفضل الجهود المشتركة، لما بين أربعة وخمسة مشاركين، إلى بلوغ مستوى عال غير مألوف، في نهاية ثلاثة أيام. بلغ مؤتمرنا هذه المرحلة -كان هذا على الأقل هو انطباعي- عندما تملكنا كلنا الإحساس المفرح بتعلم شيء ما، من بعضنا البعض، وعلى كل حال، كنا كلنا مستغرقين في صلب الموضوع، حينما أخذ الانتربولوجي الحاضر الكلمة.

قال تقريبا: "تساءلتم بلاشك، لماذا لم أقل بعد، كلمة، أثناء هذا الاجتماع إن هذا يرجع إلى كوني ملاحظ، وبصفتي أنثربولوجيا، لم آت هنا، لأشارك في سلوككم اللفظي، بقدر ما جئت لدراسته. إن هذا إذن، هو ما قمت به. ولا نهماكي في هذه المهمة، لم أستطع دائما متابعة المحتوى الموضوعي لمناقشاتكم. ولكن عندما يكون مثلي، قد درس آلاف جماعات النقاش، يعرف أن المهم، ليس حقيقة، ما هو موضوع النقاش· فنحن معشر-الانتربولوجين". قال هذا تقريبا حرفيا (بقدر ما أتذكر). "نتعلم التفكير في هذا النوع من الظواهر الاجتماعية

من الخارج، من وجهة نظر أكثر موضوعية. فما يهمنا هو، الكيف، إنها مثلا، الطريقة، التي يحاول بها، هذا المشارك أو ذاك، الهيمنة على الجماعة، وكيف تصد محاولاته من طرف الآخرين، سواء من طرف مشارك منفرد، وإما بتشكيل تحالف، وكيف يقام بعد، بعض المحاولات من هذا النوع، نظام تراتبي، وإذن، توازن الجماعة، وطقس جماعي لتحرير محضر إنها ظواهر تتكرر دائما، بطريقة متشابهة جدا، مهما كان التنوع الظاهر للمسائل المطروحة في جدول الأعمال".

استمعنا حتى النهاية إلى انتربولوجينا القادم من المريخ. وطرحت عليه عندئذ سؤالين: أولا، عما إذا كانت لديه ملاحظات يبديها حول محتوى ونتيجة نقاشاتنا، وثانيا، عما إذا لم يكن، يعتقد، بأنه يوجد شيءما، كأسباب أو حجج موضوعية، والتي يمكنها أن تكون صحيحة أو غير صحيحة. فأجاب، بأنه كان يجب عليه أن يركز كثيرا على ملاحظة سلوكنا الجماعي أكثر من أن يتمكن من متابعة محتوى نقاشاتنا بالتفصيل. وبالإضافة إلى ذلك، كان سيضع موضوعيته في خطر، وكان من الممكن أن يتورط في هذه النقاشات، وإذا انتهى إلى الاستسلام تماما، فسيصبح عندئذ واحدا منا، وينتهي الأمر بموضوعيته. وفوق ذلك، تعلم، ألا يحكم على المحتوى الحرفي للسلوكات اللفظية (كانت تتكرر على فمه باستمرار، تعابير "سلوك لفظي و"لفظية")، وألا يعبرها اهتماما كبيرا. وقال: إن المهم بالنسبة إليه، هي الوظيفة الاجتماعية والسيكولوجية، لهذا السلوك اللفظي. وأضاف. "إذا كانت بعض الحجج، أو بعض الأسباب، يمكنها أن تؤثر فيكم، أنتم، الذين تشاركون في نقاش ما، فما يهم بالنسبة لنا، في الحقيقة، أنكم تستطيعون أن تتبادلوا الانفعال أو التأثير، بمثل هذه الوسائل، وما يهم بطبيعة الحال، قبل كل شيء، هي أعراض هذا التأثير. إننا نهتم بمفاهيم مثل، الإلحاح والتردد والتراجع والإذعان. وفيما يتعلق بالمحتوى الفعلي للنقاش، فإنه لا يهمنا إطلاقا، إلا من ناحية توزيع الأدوار، واللعب الدرامي كما هو. وفيما يتعلق بالحجج المزعومة، فهي ليست بالطبع، إلا شكلا خاص من السلوك اللفظي، وليست أكثر أهمية من السلوكات الأخرى. إنه وهم ذاتي خالص، الاعتقاد، في أنه من الممكن القيام بتمييز واضح، بين الحجج والتعابير اللفظية الأخرى، الهادفة إلى التأثير. ونفس الشيء بين الحجج الصحيحة موضوعيا، وغير الصحيحة موضوعيا. وعلى الأكثر، يمكن تصنيف الحجج، حسب أنهاتم قبولها كصحيحة أو كغير صحيحة، داخل بعض الجماعات في بعض الفترات. ويتجلى كذلك، الدور الذي يلعبه عنصر الزمن، لكون أن الحجج المزعومة التي تم قبولها في جماعة للنقاش، مثل هذه الجماعة، يمكنها على الأقل، أن تهاجم، أو ترفض فيما بعد من طرف أحد المشاركين".

لن أواصل إلى أبعد حكاية هذه الحادثة. وأتخيل أنه سيكون من غير المفيد، أن أسجل في الدائرة الحاضرة، أن الموقف المتطرف نوعا ما الصديقي الانتربولوجي، تأثر فيما يتعلق بمصدره، في تاريخ الأفكار، ليس فقط بنموذج الموضوعية عند السلوكية، ولكنه تأثر كذلك،

ببعض الأفكار، التي نبتت على الأرض الألمانية: أفكر في النسبية الكونية: النسبية التاريخية، التي تعتقد، أنه لا توجد حقيقة موضوعية. ولكن توجد فقط حقائق صحيحة، بالنسبة لهذا القرن أو ذاك أو النسبية السوسيولوجية التي تعلم، أنه توجد حقائق أو علوم صحيحة، بالنسبة لهذه الجماعة أو تلك، أو هذه الطبقة، مثلا، علم بروليتاري وعلم بورجوازي، وأعتقد علاوة على ذلك، أن ما يسمى سوسيوجيا المعرفة، تتحمل مسؤولية تامة وكاملة، في تكوين عقائد صديقي الانتربولوجي.

ولو وافقت على ذلك، فإن صديقي الانتربولوجي تبنى أثناء هذا المؤتمر موقفا متطرفا وهذا الأخير، ليس مع ذلك، لا معزولا، ولا بدون دلالة، خاصة إذا أحدثنا فيه بعض التعديل.

ولكنه موقف غير معقول، وبما أنني انكببت في مكان آخر، على نقد معمق للنسبية التاريخية، وسوسيولوجيا المعرفة، فسأتخلى هنا، عن نقد هذا الموقف. وسأكتفي بمناقشة، باختصار، التصور الساذج والخاطئ للموضوعية العلمية الذي يقوم عليه.

الأطروحة الحادية عشرة: إنه من الخطإ تماما الافتراض، بأن موضوعية العلم، تتعلق بموضوعية العالم. وإنه من الخطإ تماما، الاعتقاد، بأن الباحث في علوم الطبيعة، سيكون أكثر موضوعية من الباحثي في العلوم الاجتماعية. فالباحثي في علوم الطبيعة متحيز تماما، مثل الناس الآخرين. وما لم يشكل جزءا من هذه الأقلية، التي تنتج باستمرار أفكارا جديدة، فإنه مع الأسف، يكون عادة شديد التحيز للأفكار التي يدافع عنها، بل، إن بعض الفيزيائيين المعاصرين، الأكثر شهرة، أسوا مدارس، تبذل مقاومة عنيفة للأفكار الجديدة.

تتضمن أطروحتي مع ذلك، أيضا، مظهرا إيجابيا، وله أهمية أكبر إنه يشكل موضوع أطروحتي الثانية عشرة.

الأطروحة الثانية عشرة: ما يمكن تسميته موضوعية علمية يقوم فقط وحصرا على التقليد النقدي، الذي يجعل من الممكن نقد عقيدة مهيمنة، على الرغم من المقاومات. وبعبارة أخرى، إن موضوعية العلم، ليس مسألة شخصية، تهم العلماء منفصلين. ولكنها مسألة اجتماعية، تنجم من نقدهم المتبادل، ومن تقسيم العمل الودي – العدائي بين العلماء، ومن تعاونهم بمقدار تنافسهم. إنها تتعلق إذن، جزئيا، بسلسلة من الظروف الاجتماعية والسياسية، التي تجعل هذا النقد ممكنا.

الأطروحة الثالثة عشرة: ما يسمى سوسيولوجيا المعرفة، والتي تجعل موضوعية العلم تقوم على سلوك رجال العلم، كل واحد بمفرده، وتفسر اللاموضوعية، بالموقع الاجتماعي للعلماء، فاتتها تماما، هذه النقطة الحاسمة، أي، أن الموضوعية، تقوم فقط وحصرا على النقد. وما يفلت من سوسيولوجيا المعرفة، ليس شيئا آخر، إلا سوسيولوجيا المعرفة، أي، بالضبط، المظهر الاجتماعي للموضوعية العلمية والتنظير لها. إن الموضوعية، لا يمكنها أن تفسر إلا

بواسطة مفاهيم اجتماعية، مثل، مفهوم التنافس (تنافس رجال العلم فيما بينهم، وبين مختلف المدارس)، ومفهوم التقليد (أي التقليد النقدي) . ومفهوم المؤسسة الاجتماعية (مثلا، النشر في مختلف المجلات المتنافسة، ومن طرف مختلف الناشرين المتنافسين، والنقاشات أثناء المؤتمرات)، ومفهوم سلطة الدولة (أن يكون النقاش الحر مسموحا به سياسيا). تلعب بالطبع، تفاصيل أقل أهمية دورا في الموضوعية، مثل الموقع الاجتماعي أو الايديولوجي للباحث، والتي تنتهي على هذا الشكل، بإقصاء ذاتها على المدى الطويل وعلى المدى القصير.

بنفس الطريقة التي حللنا بها، مشكل الموضوعية، نستطيع كذلك، حل مشكل الحرية بالنسبة للقيم، بطريقة أكثر حرية، مما لا نفعله عادة.

الأطروحة الرابعة عشرة: نستطيع أن نميز في النقاش النقدي، مسائل، مثل:

1) مسألة حقيقة تأكيدما؛ ومسألة ملاءمته وأهميته ودلالته، بالنسبة للمشاكل التي نعالجها.

2) مسألة ملاءمته وأهميته ودلالته، بالنسبة لمختلف المشاكل الخارجة عن المجال العلمي، مثلا، مشكل الرفاهية الإنسانية، ومشاكل كل مختلف جدا، للدفاع الوطني، ولسياسة وطنية عدائية، وللتطور الصناعي أو للثروة الشخصية.

إنه من المستحيل، بالطبع، إقصاء هذا النوع من المصالح الخارجة عن المجال العلمي من البحث العلمي، ومنعها من التأثير في سيره، وإنه من المستحيل تماما كذلك، إقصاؤها من البحث في ميدان العلوم الطبيعية – مثلا، من البحث الفيزيائي– منه في ميدان العلوم الاجتماعية.

وما هو ممكن ومهم، والذي يضفي على العلم طابعه النوعي، ليس هو إقصاء المصالح الخارجة عن المجال العلمي، ولكنه التمييز، بين المصالح التي لا تتعلق بالبحث عن الحقيقة، والأهمية العلمية الخالصة بالنسبة للحقيقة. ولو أن الحقيقة هي مبدؤنا الناظم، والقيمة العلمية التي تتصدر كل القيم الأخرى، فإنها ليست القيمة الواحدة والوحيدة. إن الملاءمة والأهمية ودلالة تأكيد ما، بالنسبة لحالة مسألة علمية خالصة، هي كذلك قيم علمية، ذات أهمية كبيرة، ونفس الشيء، بالنسبة لقيم، كقيمة الخصومة والقوة التفسيرية والبساطة والدقة.

وبعبارة أخرى، توجد قيم ولا قيم علمية خالصة، وقيم ولا قيم خارجة عن المجال العلمي، ومع أنه سيكون من المستحيل، فصل العمل العلمي، عن التطبيقات والتقويمات الخارجة عن المجال العلمي، فإن إحدى مهام النقد والنقاش العلميين، هي محاربة التباس مجالات القيم، وبصفة خاصة، بإقصاء التقويمات الخارجة عن المجال العلمي من مسائل الحقيقة.

ولا يمكن لهذا، بالطبع، أن يتحقق دفعة واحدة، بواسطة مرسوم، وسيبقى ذلك إحدى المهام الدائمة للنقد العلمي المتبادل. إن صفاء العلم الخالص، هو مثل أعلى من المستحيل على الأرجح بلوغه. ولكن، من أجله يحارب النقد بدون توقف، ويجب عليه أن يحارب من أجله بدون توقف.

أبرزت بصياغة هذه الأطروحة، كيف أنه من المستحيل عمليا، إقصاء القيم الخارجة عن المجال العلمي من العمل العلمي. ونفس الشيء بالنسبة للموضوعية: إننا لا نستطيع أن ننزع من العالم تحيزه دون أن ننزع منه بنفس الفعل إنسانيته . وبالمثل، إننا لا نستطيع، أن نمنع أو نحطم أحكامه القيمية، دون أن نحطمه في نفس الوقت كإنسان وكعالم . إن دوافعنا ومثلنا العلمية العليا الخالصة، كمثل البحث الخالص عن الحقيقة مترسخة بعمق في قيم خارجة عن المجال العلمي، وخصوصا، القيم الدينية. إن العالم "الموضوعي" و "المتجرد من كل قيمة "، ليس هو العالم المثالي، وذلك، لأنه لا شيء يتم بلا تحيز، حتى في العلم الخالص· والعبارة "حب الحقيقة"· ليست استعارة بسيطة.

ليست المسألة إذن، ببساطة، أن الموضوعية، وغياب حكم القيمة، هي قيم تتجاوز عمليا العالم المنعزل. ولكن، لأن الموضوعية، وغياب حكم القيمة، هي في ذاتها قيم. وبما أن غياب حكم القيمة، هو في ذاته قيمة، فإن مطلب الغياب المطلق لحكم القيمة، يعد مفارقة. ومع أن هذا الاعتراض، لن يكون مهما جدا، فينبغي مع ذلك، ملاحظة، أن المفارقة ستختفي تماما من تلقاء ذاتها، إذا عوضنا مطلب غياب حكم القيمة، بهذا المطلب، الذي بموجبه، أن إحدى مهام النقد العلمي، يجب أن تكون هي توضيح التباسات القيمة، وفصل مسائل القيمة العلمية الخالصة: "الحقيقة والملاءمة والبساطة: إلخ... عن مسائل القيمة الخارجة عن المجال العلمي.

حاولت حتى الآن، أن أطور باختصار، الأطروحة التي بموجبها، أن منهج العلم يقوم على عنصرين: اختيار المشاكل المهمة، ونقد محاولاتنا للحل، محاولات، دائما فقط، افتراضية ومؤقتة. بالإضافة إلى ذلك، سعيت باللجوء إلى مثال مسألتي المنهج المتجادل حولهما جدا في العلوم الاجتماعية، بأن هذه الميتودولوجيا النقدية إذا كان لي أن أسميها هكذا)، توصلت إلى نتائج ميتودولوجية عقلانية حقا. لكن، ولو أنني استطعت قول بعض الكلمات في موضوع الابيستمولوجيا ومنطق المعرفة، وتقديم بعض الملاحظات النقدية في ميتودولوجيا العلوم الاجتماعية، فلم أقل بعد شيئا كثيرا إيجابيا بخصوص موضوعي بحصر المعنى، منطق العلوم الإجتماعية :

لا أريد التركيز على الأسباب، التي من أجلها، أعتبر أنه من المهم، مطابقة في الوهلة الأولى بين المنهج العلمي والمنهج النقدي. أفضل أن أتطرق مباشرة لبعض المسائل والأطروحات المنطقية الخالصة.

الأطروحة الخامسة عشر: إن الوظيفة الأكثر أهمية للمنطق الاستنباطي، هي وظيفة أورغانون للنقد.

الأطروحة السادسة عشرة: إن المنطق الاستنباطي، هو نظرية صحة الاستنباطات المنطقية أو الترابطات المنطقية. والشرط الضروري والحاسم لصحة استدلال منطقي، يمكنه أن يصاغ كما يلي: إذا كانت مقدمات استنباط صحيح صحيحة، فالنتيجة يجب أن تكون هي كذلك صحيحة.

الشيء الذي يمكن التعبير عنه كذلك، كالتالي: إن المنطق الاستنباطي، هو نظرية نقل حقيقة المقدمات إلى النتيجة:

الأطروحة السابعة عشرة: نستطيع أن نقول: إذا كانت المقدمات صحيحة، وإذا كان الاستنباط صحيحا، عندئذ، فالنتيجة، يجب أن تكون هي كذلك صحيحة؛ وإذن، إذا كانت النتيجة خاطئة في استنباط صحيح، فمن غير الممكن، أن تكون المقدمات كلها صحيحة.

هذه النتيجة عادية، ولكنها ذات أهمية حاسمة. ويمكنها كذلك أن تصاغ كالتالي:
إن المنطق الاستنباطي، ليس فقط، نظرية نقل حقيقة المقدمات إلى النتيجة، ولكنه في آن واحد، وعكسيا، نظرية إعادة نقل خطإ النتيجة إلى إحدى مقدماتها على الأقل.

الأطروحة الثامنة عشرة: أصبح المنطق الاستنباط إذن، نظرية للنقد العقلاني، وذلك لأن كل نقد عقلاني يشتغل بالطريقة التالية: إننا نسعى إلى أن نبين أن بعض النتائج غير المقبولة، يمكنها أن تستنبط من التأكيد الخاضع للنقد. وإذا نجحنا في أن نستنبط منطقيا من تأكيد ما، نتائج غير مقبولة، فإن هذا التأكيد إذن قد تم تفنيده.

الأطروحة التاسعة عشرة: إننا نشتغل في العلوم بنظريات، أي، نشتغل بأنساق استنباطية، ويوجد سببان لهذا: الأول، هو أن نظرية ما، وبعبارة أخرى، إن نسقا استنباطيا، هو محاولة للتفسير، وإذن، فهو محاولة لحل مشكل علمي. والسبب الثاني، هو أن نظرية ما، أو نسقا استنباطيا، يمكنه أن ينتقد عقلانيا من خلال نتائجه. يتعلق الأمر إذن، بمحاولة للحل تخضع للنقد العقلاني.

أنهيت المنطق الصوري كاورغانون للنقد.

استعلمت هنا، مفهومين أساسيين، يتطلبان شرحا مختصرا: مفهوم الحقيقة ومفهوم التفسير.

الأطروحة العشرون: إن مفهوم الحقيقة ضروري للنزعة النقدية، كما تم تطويره هنا. فما ننتقده، هو ادعاء نظرية ما للحقيقة. وما نسعى إلى أن نبينه عندما ننتقد نظرية ما، هو بالطبع، أن هذا الادعاء، ليس مؤسسا: إن النظرية خاطئة.

إن الفكرة الميتودولوجية الأساسية التي بموجبها، نستطيع أن نتعلم من أخطائنا، لا يمكن فهمها دون اللجوء إلى الفكرة الناظمة للحقيقة: إننا عندما نرتكب خطأ ما، فهذا يعني بالضبط، أنه حسب المعيار الناظم للحقيقة، لم نبلغ هدفنا، ولم نرض معيارنا· إننا نسمي قضية ما "صحيحة"، عندما تطابق الوقائع، أو عندما تكون الأشياء كما تقدمها القضية· وهذا هو مفهوم الحقيقة المطلق أو الموضوعي، الذي يستعمله كل واحد منا باستمرار· وكانت إحدى النتائج الأكثر أهمية التي توصل إليها المنطق الحديث، هو النجاح الباهر الذي أعاد به الاعتنبار لمفهوم الحقيقة المطلقة هذا.

تعني هذه الملاحظة أن مفهوم الحقيقة تآكل –وبالفعل، فإن تآكل مفهوم الحقيقة، هو الذي حرك الايديولوجيات النسيبة المهيمنة في عصرنا.

إنه السبب الذي من أجله أميل إلى اعتبار، رد الاعتبار لمفهوم الحقيقة من طرف المنطقي والرياضي ألفريد تارسكي، بمثابة النتيجة الأكثر أهمية فلسفيا للمنطق الرياضي الحديث. لا أستطيع بالطبع، أن أشرح هذه النتيجة هنا: لا أستطيع إلا أن أقول بطريقة دوغمائية جدا، بأن تارسكي، توصل إلى تفسير، بالطريقة الأكثر بساطة، والأكثر إقناعا، التي يمكن تخيلها، على ماذا يقوم اتفاق عبارة ما مع الوقائع . والحال، إنها بالضبط، الصعوبة الميئوس منها لهذه المسألة، هي التي أدت إلى النسبية الشكية– مع نتائج اجتماعية، لا حاجة بالطبع، لوصفها في هذه الأماكن.

والمفهوم الثاني الذي استعملته، والذي يتطلب شرحا، هو مفهوم التفسير، أو بالأحرى، منهم التفسير السببي.

إن مشكلا نظريا خالصا –مشكل علم خالص– يمكن دائما في إيجاد تفسير– تفسير واقعة ما، ظاهرة ما، اطراد لافت للنظر، أو أيضا استثناء لافت النظر، وما نأمل تفسيره، لنسمه المفسر. إن محاولة الحل، أي، التفسير، يكمن في نظرية ما، في نسق استنباطي، يسمح لنا بتفسير المفسر بربطه منطقيا بوقائع أخرى (ما يسمى الظروف الأولية). إن تفسيرا واضحا تماما يكمن دائما في اشتقاق أو عملية اشتقاق المفسر انطلاقا من النظرية، مع الأخذ بعين الاعتبار الظروف الأولية.

إن الخطاطة المنطقية الأساسية لكل تفسير، تكمن إذن، في استدلال منطقي استنباطي، والذي تتألف مقدماته من النظرية، ومن الظروق الأولية، وتكون نتيجته هي المفسر [3].

عرفت هذه الخطاطة عددا مدهشا من التطبيقات. إنها تسمح مثلا، بتبيان، على ماذا يقوم الاختلاف بين فرضية عينية ad hor، وفرضية قابلة للمراقبة في استقلال عن السياق· إنها تسمح كذلك، وهذا ما سيهمكم ربما أكثر، بتحليل منطقيا، بطريقة بسيطة، الاختلاف بين مشاكل نظرية، ومشاكل تاريخية، ومشاكل علم تطبيقي، ويظهر بخاصة، أن التمييز المشهور بين علوم نظرية أو متعلقة بالنظرية، وعلوم تاريخية أو كتابات رمزية، يمكنه أن

يحصل على تبرير منطقي تام وكامل، بقد ما نقصد "بعلم"، بصفة عامة نشاطا، يتوجه نحو مجموعة محددة ومتميزة منطقيا من المشاكل.

كانت هذه هي التوضيحات، التي أردت الإدلاء بها بخصوص المفاهيم المنطقية التي استعملتها.

وانطلاقا من كل واحدمن هذين المفهومين، مفهوم الحقيقة ومفهوم التفسير، يمكن تطوير تحليل منطقي لمفاهيم أخرى، ربما أكثر أهمية كذلك، بالنسبة لمنطق المعرفة أو الميتودولوجيا: مفهوم الاقتراب من الحقيقة، من جهة، ومفهوم القوة التفسيرية، أو المحتوى التفسيري لنظرية ماء من جهة أخرى.

هذان المفهومان، هما مفهومان منطقيان خالصان، في المقياس الذي يمكنهما أن يتحدد بواسطة مفاهيم منطقية خالصة، لصحة عبارة ماء ومحتوى عبارة ما، أي، فئة النتائج المنطقية لنظرية استنباطية.

وكلاهما مفهومان نسبيان: ولو أن كل عبارة، تكون، ببساطة، صحيحة أو خاطئة، فإنه مع ذلك، يمكن لعبارة ما، أن تمثل اقترابا من الحقيقة أفضل من عبارة أخرى. ستكون مثلا، هي الحالة، إذا كانت للعبارة الأولى نتائج منطقية صحيحة "أكثر" من العبارة الثانية، ونتائج منطقية خاطئة "أقل" من العبارة الثانية يفترض هنا، أن المجموعات الجزئية الصحيحة والخاطئة لمجموعات النتائج للعبارتين قابلة للمقارنة). ويمكن إذن، أن نبين بسهولة، لماذا نحن على حق، في التسليم، بأن نظرية نيوتن، هي اقتراب من الحقيقة أفضل من نظرية كبلر. وبنفس الطريقة، يمكن أن نبين، أن القوةج التفسيرية لنظرية نيوتن أكبر من القوة التفسيرية لنظرية كبلر.

استوفينا إذن، مفاهيم منطقية، يقوم عليها التقدير الذي نصدره على نظرياتنا، والتي تسمح لنا بالحديث في المعنى القوي، عن تقدم أو تراجع بخصوص النظريات العلمية.

أنهيت إذن، المنطق العام للمعرفة، وأود أن أقدم الآن، بعض الأطروحات المتعلقة بمنطق المعرفة، الخاص بالعلوم الاجتماعية.

الأطروحة الواحدة والعشرون: لا يوجد علم يتأسس على الملاحظة الخالصة، ولكن توجد فقط، علوم تنظر بطريقة تقريبا، واعية ونقدية. وهذا الأمر صحيح كذلك، بالنسبة للعلوم الاجتماعية.

الأطروحة الثانية والعشرون: إن البسيكولوجيا علم اجتماعي، وذلك، لأن فكرنا وفعلنا يتعلقان إلى حد كبير، بالظروف الاجتماعية. فمقولات مثل (أ) المحاكاة و0ب) اللغة و(ج) العائلة، هي بوضوح، مقولات اجتماعية، ومن الواضح كذلك، أن السيكولوجيا التعلم والتفكير، مثل التحليل النفسي، مثلا، تكون مستحيلة، بدون هذه أو تلك من هذه المقولات

الاجتماعية أو تلك الشيء الذي يبين أن البسيوكولوجيا تفترض إذن، مفاهيم اجتماعية؛ ونستطيع أن نستنتج من ذلك، أنه من المستحيل، تغير المجتمع كله، بكلمات البيكولوجية أو اختزاله إلى البيكولوجيا. إن البيكولوجيا، لا يمكنها إذن، أن تعتبر بمثابة العلم، الذي سيكون أساس العلوم الاجتماعية.

ما لا نستطيع مبدئيا تفسيره بكلمات ابسيكولوجية، والذي نحن ملزمون بافتراضه في كل تفسير ابسيكولوجي، هي البيئة الاجتماعية للإنسان، إن وصف هذه البيئة الاجتماعية – وبالتحديد بواسطة نظريات تفسيرية، لأنه، كما تم تفسير ذلك أعلاه، لا يوجد وصف نظري خالص– هي إذن، المهمة الأساسية للعلم الاجتماعي. ويظهر من الملائم أن توكل هذه المهمة إلى السوسيولوجيا. إنه إذن. ما سأفترضه فيما يلي:

الأطروحة الثالثة والعشرون: إن السوسيولوجيا مستقلة، بهذا المعنى، بحيث يمكنها ويجب عليها أن تجعل نفسها مستقلة إلى حد كبير عن البسيكولوجيا. وبغض النظر عن وضعية تبعية البيكولوجيا، بالنسبة للأفكار الاجتماعية (أنظر أطروحتي الثانية والعشرين)، فإن هذا الاستقلال، يرجع إلى كون أن السوسيولوجيا، تجد أطروحتي الثانية والعشرين)، فإن هذا الاستقلال، يرجع إلى كون أن السوسيولوجيا، تجد نفسها موضوعة باستمرار، أمام ضرورة تفسير بعض النتائج الاجتماعية–غير المرغوب فيها، وأحيانا، حتى غير المامولة للفعل الإنساني. مثال. إن المنافسة ظاهرة اجتماعية غير مأمولة عادة، من طرف المتنافسين أنفسهم.ولكن، يمكنها ويجب أن تفسر كنتيجة غير مرغوب فيها (وبصفة عامة لا يمكن تجنبها) للأفعال الواعية والمتعمدة) للمتنافسين.فالظاهرة الاجتماعية للمنافسة، هي نتيجة اجتماعية لا يمكن تفسيرها سيكولوجيا.

الأطروحة الرابعة والعشرون: إن السوسيولوجيا مستقلة كذلك، بمعنى ثان، بما أنها هذه المعرفة التي أعطي لها أحيانا، اسم "سوسيولوجيا تفهمية" [4].

الأطروحة الخامسة والعشرون: إن الفحص المنطقي للمناهج المستعملة في الاقتصاد، توصل إلى نتيجة قابلة للتطبيق في كل العلوم الاجتماعية· وتبين هذه النتيجة، أنه يوجد في العلوم الاجتماعية منهج موضوعي خالص، والذي يمكن تسميته، منهج الفهم الموضوعي، أو منطق الوضعية· إن علما اجتماعيا، يطبق الفهم الموضوعي، يمكنه أن يتطور في استقلال عن كل فكرة ذاتية أو سيكولوجية· ويقوم هذا المنهج على تحليل وضعية الذات الفاعلة بما فيه الكفاية، للتمكن من تفسير فعلها، انطلاقا من الوضعية، دون اللجوء إلى السبيكولوجيا. ويقوم الفهم الموضوعي على إدراك، أن الفعل كان ملائما موضوعيا للوضعية· وبعبارات أخرى. إن تحليل الوضعية، ذهب بعيدا، بحيث، أن عوامل ظهرت لأول وهلة، على أنها من نظام ابسيكولوجي، كالرغبات والدوافع والذكريات والتداعيات، مثلا، تحولت إلى عوامل للوضعية· إن إنسانا لديه هذه الرغبات أو تلك، أصبح إنسانا تتضمن وضعيته

الموضوعية، على أنه يتبع هذه الأهداف الموضوعية أ تلك· وإن إنسانا لديه هذه الذكريات أو تلك، أو التداعيات، أصبح إنسانا تتضمت وضعيته الموضوعية، أن يكون مزودا موضوعيا بهذه النظريات أو تلك، أو بهذه المعلومة أو تلك.

يسمح لنا هذا إذن، بفهم أفعاله موضوعيا، في المقياس، الذي نستطيع أن نقول فيه: عندي بالطبع، أهداف أخرى أو نظريات أخرى (كشارلمان، مثلا)، ولكن، إذا كنت وجدت نفسي، في نفس الوضعية مثل، كنت سأتصرف بنفس الطريقة مثله، وأنت كذلك بدون شك· إن منهج تحليل الوضعية إذن، هو منهج فرداني حقا، ولكنه، ليس سيكولوجيا، وذلك لأنه يقصي مبدئيا العوامل السيكولوجية، ويعوضها بعناصر موضوعية للوضعية، أسميه عادة· "منطق الوضعية" .

الأطروحة السادسة والعشرون: إن تفسيرات منطق الوضعية التي تم وصفها هنا، هي إعادة بناءات عقلانية ونظرية. إنها مفرطة في التبسيط، ومفرطة في التخطيط، وإذن، فهي خاطئة بصفة عامة. ومع ذلك، فهي يمكنها أن تكون ذات محتوى مهم للحقيقة، ويمكنها أن تشكل اقترابا جيدا من الحقيقة، في المعنى المنطقي الدقيق، بل، إن لم تشكل اقترابا من الحقيقة أفضل من بعض التفسيرات الأخرى القابلة للتحقق . وفي هذا المعنى، فالمفهوم المنطقي للاقتراب من الحقيقة ضروري قطعا، للعلوم الاجتماعية التي تطبق تحليل الوضعية· لا سيما وأن تحليلات الوضعية قابلة للنقد عقلانيا واختباريا ، وهي قابلة للتحسين.نستطيع مثلا، أن نجد رسالة، تبين أن المعرفة التي كان يمتلكها شارلمان، تختلف تماما عما افترضناه في تحليلنا. في حين أننا لا نفهم، كيف يمكن لفرضيات ابسيكولوجية وطباعية· أن تنتقد بواسطة حجج عقلانية.

الأطروحة السابعة والعشرون : إن منطق الوضعية، يفترض، بصفة عامة، عالما فيزيائيا نعمل داخل وهذا العالم، يحتوي، مثلا، على مصادر فيزيائية، تمتلكها، ونعرف عنها شيئا ما، مثل العوائق الفيزيائية، التي نعرف عنها كذلك، بصفة عامة، شيئا ما (أحيانا ليس شيئا كثير). بالإضافة إلى أنه يجب على منطق الوضعية، أن يفترض كذلك، عالما اجتماعيا، يقطنه أناس آخرون، يجتمعون حول الأهداف التي نعرف عنها شيئا ما (أحيانا ليس شيئا كثيراً). ويتضمن فضلا عن ذلك، مؤسسات اجتماعية. وهذه المؤسسات الاجتماعية تحدد الطابع الاجتماعي النوعي لبيئتنا الاجتماعية. إنها تتضمن كل الكيانات الاجتماعية للعالم الاجتماعي. وهي كيانات، تطابق، إذا صح القول، أشياء العالم الفيزيائي. إن دكان ومؤسسة جامعية وقوة الشرطة أو قانونا، هي في هذا المعنى، مؤسسات اجتماعية والكنيسة والدولة والزواج، هي كذلك مؤسسات اجتماعية، مثل الهارا كيري في اليابان مثلا . ولكن، في مجتمعنا الأوربي، ليس الانتحار مؤسسة في المعنى الذي استعمل فيه هذه الكلمة، والذي أؤكد فيه، أن هذه المقولة مهمة.

كانت هذه أطروحتي الأخيرة. ويتبع أيضا اقتراح، وملاحظة قصيرة للخاتمة.

اقتراح: نستطيع ربما التسليم مؤقتا بالمنطق العام للوضعية. وبنظرية المؤسسات والتقاليد كمشاكل أساسية للسوسيولوجيا النظرية الخالصة . سيشمل هذا البرنامج مشاكل مثل هذه:

1- إن المؤسسات لا تعمل، وحدهم الأفراد يعملون في، أو من أجل مؤسسات، وسيكون المنطق العام لوضعية هذه الأفعال، نظرية أشباه أفعال المؤسسات.

2- نستطيع بناء نظرية للنتائج المؤسساتية، المرغوب فيها وغير المرغوب فيها للأفعال الهادفة إلى غاية ذاتية· وهذا يمكنه أن يؤدي كذلك، إلى نظرية أصل وتطور المؤسسات.

أختم بملاحظة أخيرة: أعتقد بأن نظرية المعرفة، ليست مهمة فقط، بالنسبة لمختلف العلوم. ولكنها مهمة كذلك بالنسبة للفلسفة. إن القلق الديني والفلسفي لعصرنا، والذي يهمنا كلنا، بالتأكيد، هو إلى حد كبير قلق ابستمولوجي. سماه نتشه العدمية الأوربية، وسماه بندا خيانة الإكليروس. وأريد أن أصفه كنتيجة للاكتشاف السقراطي، بأننا لا نعرف شيئا، أي، بأننا لا نستطيع أبدا تبرير نظرياتنا عقلانيا. ومع ذلك، فهذا الإكتشاف المهم، الذي أنتج حقا، من بين أشكال أخرى للقلق، خاصة قلق الوجودية، ليس إلا نصف اكتشاف، والعدمية يمكن تجاوزها، وبالفعل، فمع أننا لا نستطيع تبرير نظرياتنا عقلانيا، ولا حتى البرهنة على طابعها الاحتمالي، فإننا نستطيع نقدها عقلانيا، ونستطيع تمييز أفضل النظريات من أسوئها.

وفضلا عن ذلك، كان هذا شيئا معروفا، من طرف الشيخ كزينوفان، قبل سقراط، عند ما كتب: لم تكشف الآلهة للناس كل شيء منذ البداية.

لكن، بالبحث مع مرور الزمن سنجد ما هو أفضل [5].

الهوامش

1- ما يسميه خصومي من فرانكفورت، المذهب الوضعي، يظهر لي، أنه يتطابق مع ما أسميه، "المذهب الطبيعي المنقول"· إنهم يتجاهلون، كون أنني أرفضه.

2- منذ أن كتب هذا سنة 1961. كان هناك رد فعل قوي ضد النظريات التي انتقدت هنا.

3- في العلوم الاجتماعية تقوم مقدمات التفسير عادة على نموذج للوضعية، وفي ما يسمى "مبدأ العقلنة". نوقشت "تفسيرات منطق الوضعية" بسرعة في أطروحتي رقم 25 و 26.

4- من أجل نقاش شامل (مع بعض الأمثلة) لنظرية موضوعية للفهم أنظر مقالي "في نظرية الفكر الموضوعي" الذي يشكل الفصل الرابع من كتابي "المعرفة الموضوعية". (ط. الإنجليزية).

5-أنظر كتابي. "تخمينات وتفنيدات"· ص: 152 (ط. الإنجليزية).